أمنيات العراقيين .. هـي نفسها من ربع قرن!

منذ عام ١٩٩٥، اعتدت أن استطلع أمنيات العراقيين بداية كل عام جديد، لغرضين: الأول، توثيقها لمن سيكتب عن تاريخ العراق الاجتماعي، والثاني، دراسة الحالة السيكولوجية للعراقيين. والغريب فيها أنني لو جمعتها واطلع عليها الناس لما صدّقوا أن امنيات العراقيين في سنواتهم السبع والعشرين الأخيرة كانت بسيطة للغاية. إليكم بعض أمنياتهم في العام (٩٥): (آكل وجبة لحم ولو مرّة بالأسبوع برغيف خبز أبيض مونخاله.. في ١٣ سنة حصار)، و (توفر الكهرباء في حر تموز وبرد كانون.. في ١٤ سنة ديمقراطية).

□ د. قاسم حسين صالح

والمفارقة، كان طاغية الدكتاتورية يأكل لحم الغزلان المطعّم برائحة الهيل والشعب يأكل خبز النخالة المعجون برائحة الصراصير، فيما كان حكّام أحزاب الإسلام السياسي ينعمون بالكهرباء والشعب يتبرّد بالمهفّة في الصيف وتغرق بيوته في الشتاء، ويأكلون ما لذّ وطاب من الأكل والشراب، وسبعة ملايين عراقي صاروا تحت خط الفقر بسببهم.

وفي العام ٢٠١٢ تمنّى الرئيس العراقي الراحل جلال الطالباني أن يكون العام الجديد "عاماً لترسيخ مبادئ الوحدة الوطنية والتعايش المشترك على قيم العدل والمساواة ولترسيخ الأمن والاستقرار وتنظيف البيئة الوطنية من عوامل الشر والإرهاب والجريمة والفساد".. وللأسف فإن ما حصل كان عكس ما تمنّى. فباستثناء التخلص من الإرهاب عسكرياً، فإن العراقيين لايزالون يتمنون تحقيق الأمن، الذي يُعد ثاني أهم حاجة سيكولوجية في هرم حاجات الإنسان لكونها تتعلق بحاجة الإنسان الى البقاء.

وفي آخر شهر من عام (٢٠١٥) استطلعنا القرّاء بسؤالين:

بماذا تصف عام ٢٠١٥ بإيجابياته وسلبياته؟.. فوصفوه بأنه: (عام الحروب والفقر والألم، والتوتر والصراعات، وقلّة الخيرات وتقشّف الحكومات، وعام الحزن على هجرة الشباب العراقي.. وعام مأساة النازحين. ومنهم من سخر قائلاً: (الله يخليك دكتور.. ليش هي اكو ايجابيات)، فيما كانت توقعات المتفائلين لعام ٢٠١٦ بأنه سيشهد: (تغييراً على الصعيد السياسي افضل بفعل زيادة الوعي الشعبي لصالح القوى المدنية، وسيكون الاحتجاج اكبر، وستنهار المحاصصة، والعام الذي سيؤدي فيه السخط الشعبي الى أن يتوحد العراقيون، والعام الذي سيشهد هزيمة القوى الطائفية)، فيما توقع المتشائمون بأن العام الجديد سيكون: (أسوأ من سابقه.. وسيكون عام قحط، وحالة من اليأس على الصعيد الاجتماعي، وزيادة معاناة الناس وحالات القتل والتهجير، والعام الذي سيشهد الصراع بين الكتل بسبب تردي الوضع الاقتصادي). فيما كان لسان حال اليائسين من اصلاح الحال تجسّده هذه (الحسجة السوداء):

(سنة جديدة
والعراقي على كلبه حاط ايده
كضه عمره.. وين ما يلتفت سطره
يمنه .. سطره
يسره.. سطره
ينطي وجهه للسما.. أهل السما
يجيبوه بدفره
ينطي وجهه للأرض.. بعد خطوه
يشوف كبره.
هيّ شنهي المسألة؟
كلها مثله الناس.. لو وحده ابتله؟!
بكل سنة جديدة.. العراقي على كلبه..
حاط ايده).

أمنيات العراقيين في العام الجديد ٢٠١٨

في الشهر الأخير من عام ٢٠١٧ توجهنا باستطلاع للقرّاء تلخص بالآتي:

حدّد أمنية شخصية واحدة، وأمنية وطنية واحدة تريد أن تتحققا في العام الجديد ٢٠١٨.

ولقد تمّ تصنيف هذه الأمنيات على النحو الآتي:

الأولى، أمنيات شخصية:

وتوزعت بين: أسرية تمثلت بـ"لمّ الشمل"، ما يعني أن الكثير من العوائل العراقية قد تفرقت في بلدان الشتات، و"الأطمئنان على الأولاد والأحفاد"، ما يعني خوف الوالدين على حياة ومستقبل أولادهم. وسكنية تمثلت ببناء بيت أو التخلص من الإيجار، ما يعني أن العراقيين يعانون أزمة سكن. وفردية تمثلت بالعودة الى حياة الريف والتخلص من صخب المدينة، والتحرر من الهموم النفسية وعدم التفكير بالرحيل عن العراق، وتحقيق زواج ثان!، والحصول على مقعد في الدراسات العليا، ونشر مسرحية (وأنا اشاركه أمنيته بأن يتم اخراج مسرحيتي "قيامة العراقيين" التي عمل الفنان عبد المطلب السنيد على إخراجها ولم تساعده وزارة الثقافة).

الثانية: أمنيات وطنية:

كانت هي الأكثر، نلخّصها على النحو الآتي:

تخص السياسيين.

- أن تنخسف الأرض بالسياسيين أينما حلّو مثل انخساف الأرض بقارون.

-خفض رواتب وامتيازات السياسيين في البرلمان والحكومة.

انتخابات:

-أن تكون في البلد حكومة تكنوقراط مُنتخبة من قبل الشعب، ورؤية دولة مدنية ديمقراطية اتحادية في انتخابات السنة الجديدة.

-أن تكون انتخاباتنا وطنية تشهد صعود قوى مدنية نزيهة لتشكّل رقماً يؤهلها لتشكيل حكومة وطنية لا حكومة محاصصات وسرّاق.

- أن يرتفع وعي المواطن لينتخب الكفء والنزيه

تربوية:

تمثلت بحل مشكلة الخريجين، ما يعني كثرة البطالة بين خريجي الجامعات، واعادة الاعتبار للتعليم العالي في العراق، ما يعني تدهوره بسبب المحاصصة السياسية.

وكانت هنالك أمنيات ساخرة، نلتقط منها الآتي:

"ماتت في أدمغتنا خلايا التمنّي!"، "في بلدنا الحبيب كل ما تتمناه يتحقق لكن عكس المطلوب.. تتمنى طماطة يجي خيار"، "أن أرى القانون هو السيد وليس السيد هو القانون"، "أن لا أرى ملتحياً في القنوات الفضائية"..وآخرها ساخرة موجعة: "عزيزي الدكتور هي أمنية واحدة لا أكثر، أن يكون لي وطن!"

العراقيون.. استثنائيون

ما يعجبك في العراقيين أنهم برغم المحن التي حرمتهم من ابسط الأمنيات فإنهم محبون للفرح والسلام. ففي الأسابيع الأخيرة من عام ٢٠١٥ تزامنت صلاة قدّاس المسيحيين وصلاة جمعة المسلمين في آخر جمعة من ٢٠١٥، وعاشت مدن العراق ليلة عامرة بالأفراح نذكر منها، أن مدينة النجف الأشرف احتفت بحضور بابا نوئيل وزيّنت شوارعها بأشجار ملوّنة.. وقال أهلها النجفيون: إننا نريد أن نردّ الجميل لإخوتنا المسيحيين الذين شاركونا أحزاننا في اربعينية الإمام الحسين، بأن نشاطرهم أفراحهم بمولد السيد المسيح وعيد رأس السنة.. وهكذا سيفعلون وهم يستقبلون عامهم الجديد هذا(٢٠١٨).

غير أن القراءة السيكولوجية لما حدث ويحدث توصلنا الى نتيجة خلاصتها: إن مزاج العراقي صيّرته الأحداث أن يكون أشبه بالأرجوحة..(رايح.. جاي) بين أزمة، انفراج، أزمة... وأن عدوى التشاؤم لديه سريعة الانتشار في أوقات الأزمات، وعدوى التفاؤل سريعة الانتشار في اوقات الانفراج. ولأن مناسبات الأزمات ومددها أكثر وأطول، فإن تفاؤله يكون بحذر.

ومع أن خواتيم العام الذي يودعه العراقيون الآن.. شهدت أحداثاً ايجابية اهمها القضاء عسكرياً على "تنظيم داعش"، والوعد بالقضاء على الفساد ومحاسبة الفاسدين، فإن نسبة المتشائمين ستبقى هي الأعلى لكثرة ما تعرضوا له من خيبات.. والخشية، أن يأتي يوم نكتب فيه مقالة عنوانها: (أمنيات العراقيين..هي نفسها بعد نصف قرن)!

الجهنميون

-١-

هناك نمط من الناس لا تفارق البسمة شفاههم، ولا تقرأ في عيونهم إلاّ النبل والطيبة ..، يتعاملون مع الناس بمنتهى الشفافية والمروءة والأدب.

وهؤلاء يدخلون القلوب بلا استئذان ... يحترمهم الناس، ويحبونهم ويشيدون بهم،

ولن يكون أحدٌ بهذه المثابة من المناقبية إلا إذا كان سليمِ الطوية، صافي السريرة، بعيداً عن العُقَد النفسيّة كلها ، وهذا النمط لا تُطغيه السلطة، ولن تتبدل أحواله وأوضاعه مهما علا شأنه وارتفع مكانه، ولسانُ حاله يقول :

وأعَزُّ ما يبقى وِدادٌ دائمٌ
إنّ المناصب لا تدومُ طويلا

وهذا على نقيض من قيل عنه :

تقلّدها وليس له عدوٌّ
وغادرها وليس له صديقُ

لقد كان المنصب سبباً لاشتباكه مع الناس، وصدور ألوانٍ الأذى منه اليهم، الأمر الذي كَثّرَ اعداءه ومحا اصدقاءه من الوجود .

وهناك قسم آخر نسمّيهم بالجهنميين، وهؤلاء لا يعرفون إلا الغلظة والقسوة والعدوان ... ولا يتورعون عن إيقاع الأذى بالبريء، فضلاً عن إذاقة غيره كؤوس النكال والعذاب ...

والجهنميون طلاب مدرسة واحدة يتوارثون دروسها جيلاً بعد جيل .

خذها من (بسر بن أرطاة) و(مسلم بن عقبة) و(شمر بن ذي الجوشن) و(الحجاج بن يوسف الثقفي) حتى تصل الى (ابن العوجة) والداعشيين المجرمين المعاصرين.

-٢-

والحديث عن الفراعنة والجبابرة حديث ذو شجون .

وسنقتصر في هذه المقالة على شيء من أخبار أحدهم، وهو (يوسف بن عمر) الذي سلّطَهُ (هشام بن عبد الملك) على رقاب العراقيين فسامهم سوء العذاب، كما سامهم الحجاج بن يوسف الثقفي قَبْلَهُ ألوان المحَن...

كان يوسف بن عمر يلقب بـ (أحمق ثقيف) فلقد جمع الحماقة المتناهية، والقسوة المفرطة، فكان مثال الوالي الظالم العسوف، غاب كاتبه عن الديوان يوماً فقال له :

ما حَبَسَك ؟

قال:

اشتكيتُ ضرسي

قال:

تشتكي ضرسك وتقعد عن الديوان !!

احضروا الحجّام

وحين حضر الحجّام أمره أن يقلع ضرسين من أضراسه !!

أرأيت كيف مزج الحماقة بالغلظة المتناهية ؟!!

إنه يعاقب (المريض) على ما أصابه من آلام مبّرحة مَنَعَتْهُ من مزاولة عمله..!!

وعلى هذا فقس ما سواها.

وكانت له ثلاث جواري، فقال لواحدة منهن:

إني أريد أنْ أشخص (أي أغادر) أفأخلفك أم أخُذك معي؟

فقالت:

صحبة الأمير أحبُّ اليّ ، ولكني أحسب أن مقامي وتخلفي أخف على قلبه..!!

فقال:

أحببتِ التخلف للفجور

يا حديجِ

اضربْها فَضَرَبَها

ومن الواضح أنّ ضربها كان عدواناً سافراً، حيث لم يصدر منها ما يوجب العقوبة، ولكنه الظلم الممزوج بالحماقة ..!!

ثم دعا بالثانية فكرّر عليها السؤال فقالت:

لست أعدل بصحبة الأمير شيئاً

بل تخرجني معك

فقال لها:

رغبتِ في النكاح

يا حديجِ

اضربْها فضربها،

وهنا كرّر حماقته المزوجة بالظلم ثانياً

ثم استدعى الثالثة وطرح عليها السؤال نفسه، فقالت:

الأمير أعلم

لينظر أخف الأمريْن عليه فيفعله، فقال لها:

هل فرغتُ من كلّ عمل فلم يبق لي إلاّ أن اختار لك، ياحديج أوجعها، فضربها، فلما انصرفت قالت:

الخيرَ كله في فراقكِ

فلم يفهم يوسف قولها وقال:

يا حديج ما تقول هذه؟

فأخبره بما قالت، فقال له:

يا ابن الخبيثة مَنْ أمرك أنْ تُعلمني ؟

ثم أمر غلاماً بأنْ يضرب حديج فَضَرَبهُ

(راجع المحاسن والأضداد ص ٣٤)

-٣-

إن الأب الذي يضرب ولده حتى الموت عقاباً له عن تخلفه في المدرسة، هو أكبر ظلماً وبطشاً من يوسف بن عمر، لأن يوسف انما عاقب كاتبه وجواريه بالضرب دون الموت، وهذا عاقب فلذة كبده بالضرب حتى الموت..!!

وهنا نذكر قول الشاعر :

قست القلوب فلم تلن لهداية
تبّاً لهاتيك القلوب القاسية

إن القساة لابُدَّ أن يدفعوا ثمن قسوتهم في حياتهم الدنيا قبل أن يحاسبوا عليها يوم القيامة .

لقد أمر فاضل البراك – وهو كبير الجلاوزة في عهد الدكتاتور المقبور – بأن يمسح بلسانه (بلاط) الغرفة التي كان يجلس فيها، ويصدر الأوامر بتعذيب الأحرار والحرائر .

وهنا تكمن عظة التاريخ.

□ حسين الصدر

حرية وكرامة الكرد

لطالما تفاخرت القيادات الكردية بأن أرض كردستان كانت ملاذاً آمناً للمعارضين العراقيين؛ أفراداً وأحزاباً إسلامية ويسارية وقومية؛ لكن هذه القيادات ومن خلال وجودها في السلطة ضاقت ذرعاً بالمعارضة من أبناء جلدتها سواء كانت المعارضة حزبية أو شعبية؛ وهو ما أضر كثيراً بصورة واحة الحرية التي بذلت الحكومات الكردستانية جهداً ومالاً كبيرين من اجلها ، وكان لهذه الصورة دور مهم في جذب الاستثمارات وتمتين العلاقات الكردية بمختلف القوى والمؤسسات الدولية؛ هذه الصورة تعرضت للتشويه بممارسات التضييق على الساسة المعارضين وعلى وسائل الإعلام وفي التعامل مع المتظاهرين.

□ ساطع راجي

لقد صبر المواطنون الكرد طويلاً على التدهور الاقتصادي وكان من واجب حكومة الإقليم تقديم الشكر لهم والبحث عن سبل للتخفيف من معاناتهم وملاحقة الفاسدين الذين اعترفت الحكومة بتحولهم الى "مافيات"، لا يمكن المساس بهم والتحقيق في تضخم ثروات الساسة والعوائل الحزبية والتفتيش في كل ركن من أرض الإقليم عن سبل لتوفير الأموال والبحث في سجلات الحكومة ودفاترها عن الأموال العامة؛ ليس لحكومة أن تركز على تجاوزات مرفوضة قام بها متظاهرون خرجوا بعدما نفدت مدخّراتهم وتعطّلت رواتبهم أو اختفى جزؤها الأكبر منذ سنوات؛ اذا كان الفاسدون فراعنة، فإن الجوع كافرٌ والفقر مذلة والبشر عامّة والكرد خاصة لا يقبلون بهذا الذل مهما كانت مبرراته وقد جربوا مقاومة ومعارضة أنظمة شرسة، فلماذا لا يعارضون وينتقدون أحزابهم مثلما يفعل الناس في كل مكان؟!!.

تعرف القيادات الكردية وهي المطّلعة جيداً على كل أساليب المعارضة، أن تظاهرات في بلدان عدّة وفي قضايا ليست بأهمية معاناة الكرد، تشهد أعمال عنف واعتداء على الممتلكات العامة والخاصة والمقار الحزبية؛ صحيح أن هذه الاعتداءات مرفوضة حتى من قبل القائمين بها، لكن تجاهل الحكومات لمشاكل الناس تدفعهم لإرتكاب اخطاء وحماقات وأحياناً جرائم (للأسف) من أجل جذب الانتباه والضغط على السلطة؛ وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالخبز والكرامة، وقد رأت القيادات الكردية كيف كان مصير الأنظمة العربية التي تجاهلت مطالب وحاجات شعوبها؛ تلك الأنظمة هي من دفعت المواطنين نحو السوء الذي يقترفونه بأيديهم؛ ولذلك فإن الاعتقالات وتكميم الأفواه سياسة مرفوضة في كل الأحوال.

أساس الأزمة الاقتصادية في اقليم كردستان سياسي؛ سواء ما يتعلق بالمشاكل بين بغداد وأربيل؛ الحكومة الكردستانية تجاهلت عمق الأزمة في الإقليم واستمرت في الذهاب الى الخيارات الصعبة ؛ وهذه الأساليب كلها لم تنجح ؛ وإذا كانت كل الخطوات الإدارية والاقتصادية التي اتخذتها حكومة كردستان والتي رفضتها الحكومة الاتحادية لم تنجح في توفير رواتب الإقليم ولا حل الأزمة الاقتصادية، فالأولى بحكومة الإقليم التراجع عن هذه الخطوات لعدم فائدتها حتى لو كانت ترى في التراجع عيباً، فالحفاظ على حرية المواطنين الكرد وكرامتهم يستحق ذلك.

إلقاء القوى الكردية باللوم على القوى الحاكمة في بغداد ليس مفيداً للكرد بل قد يظهر بعض القوى العربية المتشددة كمنتصرة؛ وهو ما ينفعها انتخابياً؛ وهي للأسف لا تشعر بالضرر الذي يلحق بالمواطنين الكرد بعدم تسليمهم رواتبهم؛ اللوم الكردي قد يدفع أيضاً الى نقد أكبر للقوى الكردية التي تحالفت مع القوى العربية الدينية الحاكمة اليوم في بغداد وتعاون الطرفين في تعطيل بناء الدولة وإضعاف مؤسساتها وتأخير تشريع القوانين المهمّة التي تحكم ادارة وتوزيع الثروة؛ بمعنى أن القوى الكردية مسؤولة أيضاً عن السوء الموجود في بقية العراق بالشراكة مع القوى الشيعية والسنية.

يجب على القوى الكردية مواجهة الأزمة في عمقها وعدم التهرب بالحديث عن التجاوزات والتظاهرات؛ وحرق المتظاهرين لمقار الأحزاب رغم أنه مرفوض، لكن لابد من التعامل معه كرسالة جماهيرية وتجاوز منهج الحكومات العربية الفاشلة في التعامل مع هكذا حالات؛ بل إن الحكومة الاتحادية العراقية هضمت اقتحام المتظاهرين لمجلس النواب وتقبّلته على أنه رد فعل غاضب يجب تفهمه وهو ما يجب أن يحدث في الإقليم أيضاً.

على القوى الكردية الانتباه الى سعادة البعض في بغداد بما يحدث في الإقليم؛ إنهم يشعرون بإزاحة عبء كبير عن صدورهم إذ لن يجدوا مواطناً في بقية العراق يشير الى حالات النجاح والاستقرار في الإقليم في سياق انتقاده للتقصير في الأداء الخدمي والاقتصادي ببقية العراق؛ بل سيُقال لهذا المواطن " اشكرنا لأننا نتركك تتظاهر وتشتم في وسائل الإعلام ونمنحك راتبك الشهري"؛ هل تعي القوى الكردية الى أين أوصلت بقية العراق؟!.

رغم كل الظروف والعُقَد؛ تبقى بغداد المحاور الأفضل للكرد والطريق إليها اقصر من الطريق لكل عواصم العالم؛ مازالت الأحزاب في بغداد تحتاج للأحزاب الكردية وفي أي تسوية ممكنة ستضطر الأحزاب الكردية في النهاية للتعامل مع بغداد؛ هذا أصلاً إذا كانت العواصم الأخرى جادة في تعهداتها العلنية؛ لكن ما يجب أن يتغير في منهج التعامل بين الطرفين في العراق هو زيادة جرعة الاهتمام بالمواطن ومصالحه ؛ العلاج في كردستان تحديداً بسيط وواضح، وهو المزيد من الديمقراطية الحقيقية التي تؤدي الى محاسبة الفاسدين أو إخراجهم من السلطة في أضعف الأيمان والاتجاه نحو التداول السلمي للسلطة وتغيير الوجوه، فهو ما يحصن الأحزاب من الغرق في مشاكل السلطة ويحميها من غضب المواطنين .

يجب على القوى الكردية الحاكمة مواجهة الأزمة في عمقها وعدم التهرب بالحديث عن التجاوزات والتظاهرات؛ وحرق المتظاهرين لمقار الأحزاب رغم أنه مرفوض، لكن لابد من التعامل معه كرسالة جماهيرية وتجاوز منهج الحكومات العربية الفاشلة في التعامل مع هكذا حالات؛ بل إن الحكومة الاتحادية العراقية هضمت اقتحام المتظاهرين لمجلس النواب وتقبّلته على أنه رد فعل غاضب يجب تفهمه وهو ما يجب أن يحدث في الإقليم أيضاً .